من آيات الله

فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار

قال تعالى فى سورة آل عمران : ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ** ﴾ [آل عمران : ١٩٠].

أى فى نظام السموات والأرض وبديع تقديرهما، وعجيب صنعهما، وفي اختلاف الليل والنهار وتعاقبهما بنظام دقيق طوال العام، نرى أثارَهُا فى أجسامنا وعقولنا بتأثير حرارة الشمس وبرد الليل. . وفى الحيوان والنبات وغير ذلك. لآيات ودلائل على وحدانية الله، وكمال علمه وقدرته. .

ولا يخفى أن فى قوله تعالى : ﴿ **إن فى خلق السموات والأرض** ﴾ نداء رقيق. . ينبعث من الأفق الأعلى، ليقود المؤمنين الذين شخصت قلوبهم وعقولهم إلى ما لله فى السموات والأرض لترتاد مواقع الحق والخير، فتجد فى هذا النداء الرقيق هادياً يهديها ورفيقاً يؤنسها، ويكشف لها معالم الطريق.

ففى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار، آيات مبصرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. . وإنه لكى يكون للعقل أثره وثمرته فى هذا المجال ينبغى أن ينصرف بكل وجوده إلى هذا الملكوت، وأن يعيش فيه وله.

فذلك هو الذى يفتح له مغالق الخير فيه، ويطلعه على مطالع الحق منه.

والتعبير هنا ﴿ **إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب** ﴾ يرسم صورةً حية من الإستقبال السليم للمؤثرات الكونية، فى الإدراك السليم، وصورةً حية من الاستجابة السليمة لهذه المؤثرات المعروضة للأنظار والأفكار، فى صميم الكون بالليل والنهار.

والقرآن يوجه القلوب والأنظار توجيهاً مُكَرَّراً مُؤَكَّداً إلى هذا الكتاب المفتوح الذى لا تَفْتَأ صفحاتُه تُقَلَّبُ فتبدو فى كل صفحة آيةٌ موحيةٌ تستجيشُ الفطرة السليمة إحساسً بالحق المستقر فى صفحات هذا الكتاب، وفى تصميم هذا البناء.

وأولو الألباب فى قوله تعالى: ﴿**لآيات لأولى الألباب**﴾ أولو الإدراك الصحيح، يفتحون بصائرهم لاستقبال آيات الله الكونية، ولا يقيمون الحواجز ولا يُغْلِقُونَ المنافذ بينهم وبين هذه الآيات، ويتوجهون إلى الله بقلوبهم قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم. فتتفتحُ بصائرهم، وتشفُّ مداركهم وتتصل بحقيقة الكون التى أودعها الله إياه، وتدرك غاية وجوده، وعلة نشأته، وقوام فطرته بالإلهام الذى يصل بين القلب البشرى، ونواميس هذا الوجود.

ومشهد السموات والأرض، ومشهد اختلاف الليل والنهار. لو فتحنا له بصائرنا وقلوبنا وإدراكنا، لو تلقيناه كمشهد جديد، تتفتح له العيون أول مرة، لو استنقذنا حسنا من هموده الإلف، وخمود التكرار، لارتعشت له رؤانا، ولاهتزت له مشاعرنا، ولأحسسنا أن وراء ما فيه من تناسق لابد من يدٍ تُنسقُ، ووراء ما فيه من نظام لابد من عقل يدبر، ووراء ما فيه من إحْكَامٍ لابد منً ناموس لا يختلف، وأن هذا كله لا يمكن أن يكون خداعاً، ولا يمكن أن يكون جزافاً، ولا يمكن أن يكون باطلاً.

والسياق القرآنى يصور خطوات الحركة النفسية التى ينشئها استقبال مشهد السموات والأرض واختلاف الليل والنهار، فى مشاعر أولى الألباب تصويراً دقيقاً. وهو فى الوقت ذاته تصوير إيحائى يلفت القلوب إلى المنهج الصحيح فى التعامل مع الكون، وفى التخاطب معه بلغته، والتجاوب مع فطرته وحقيقته والانطباع بإشاراته وإيحاءاته، ويجعل من كتاب الكون المفتوح كتاب معرفة للإنسان المؤمن الموصول بالله، وبما تبتدعه يد الله.

وأولو الألباب هم الذين ينظرون ويستفيدون، ويهتدون، ويستحضرون عظمة الله، ويتذكرون حكمته وفضله، وجليل نعمه، فى جميع أحوالهم، من قيام، وقعود، واضطجاع.

إنهم هم الذين لا يغفلون عنه تعالى فى عامة أوقاتهم باطمئنان قلوبهم بذكره، واستغراق سرائرهم بمراقبته. . ﴿**الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ**﴾ [آل عمران: ١٩١].

وذكر الله وحده لا يكفى فى الاهتداء، بل لابد معه من التفكر فى بديع صنعه وأسرار خليقته ﴿**وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ [آل عمران: ١٩١] أى وتتفكرون فى خلق السموات والأرض وما فيها من الأسرار والمنافع، الدالة على العلم الكامل، والحكمة البالغة، والقدرة التامة.

والفوز والنجاة إنما يكون بتذكر عظمة الله، والتفكر فى مخلوقاته من جهة دلالتها على وجود خالق واحد، له العلم والقدرة، ويتبع ذلك صدق الرسل، وأن الكتب التى أنزلت عليهم مفصلة لأحكام التشريع، حاوية لكل الآداب، وجميل الأخلاق، ولما يلزم نظم المجتمع فى هذه الحياة، وللحساب والجزاء على الأعمال.

وإنما ذكر التفكر فى خلق الله لورود النهى عن التفكر فى الخالق، لعدم الوصول إلى حقيقة ذاته وصفاته. فقد أخرج الأصفهانى عن عبد الله بن سلام قال: خرج رسول الله ﷺ وهم يتفكرون. فقال: «تفكروا فى الخلق، ولا تُفكرُوا فى الخالق».

وعن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ «تفكروا فى ألاء الله، ولا تفكروا فى الله تعالى».

والقرآن الكريم يقرن بين توجه القلب إلى ذكر الله وعبادته ﴿**قياما وقعودا وعلى جنوبهم**﴾ وبين التفكر فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار، فيسلك هذا التفكر مسلك العبادة، ويجعله جانباً من مشهد الذكر، فيوحى بهذا الجمع بين الحركتين بحقيقتين هامتين.

الحقيقة الأولى: أن التفكر فى خلق الله، والتدبر فى كون الله المفتوح، هو عبادة لله من صمم العبادة، وذكر الله من صمم الذكر.

والحقيقة الثانية: أن آيات الله فى الكون لا تتجلى على حقيقتها الموحية إلا للقلوب الذاكرة العابدة.

والمؤمن المتفكر يتوجه إلى الله ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ﴾ [آل عمران: ١٩١] ربنا ما خلقت هذا الذى نشاهده من العوالم العلوية والأرضية باطلاً، ولا أبدعته عبثاً. سبحانك ربنا تنزهت عن الباطل والعبث. بل كل خلقك حق مشتمل على حكم جليلة، ومصالح عظيمة.

* * *